حـفظ ومـؤانسـة

أمورٌ يَعْرِضها "عتبةُ" على رسول الله ﷺ وهي أقصى ما يتمناه مَن رَضِيَ بالحياة الدنيا واطْمَأَنَّ بها. ولا يلتفِتُ إليها ـ أو يُؤخَذُ بها ـ مَن كان يرجو الله والدارَ الآخرة. فَمَا بَالك برسول الله ﷺ ؟!

ولا تَسَلْ عن قيمة الإنسان عندما ينحصرُ في هذه الدائرة الضيقة، ولا يرى نَفْسَهُ إلاَّ بها.

يُصْبِحُ عَبْداً لهذه الأعراض، تملكه وإنْ تَوَهَّمَ أنه يملكها.

وقد انحصر المبطلون في ذلك، فلم يَرَوا من مقومات عظمةِ الإنسان غيرَ ذلك.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.[1]

ما مقومات العظمة لمن يرونه أَحَق بتنزيل القرآن عليه ؟

شاةٌ أو بَعِيرٌ، يزدَانُ بهما عظيمٌ في مكة أو الطائف.

وما دَرَوا أنَّ الإنسان لا يَعْظُمُ بأعراضٍ خارجة عنه.

وإنما يَعْظُمُ بصفاتٍ قائمةٍ فيه.

لا يعظُم الإنسانُ حين يُقالُ: ذُو مَالٍ كَثِيرٍ.

وإنما يعظُمُ عندما يكون ذا خُلُقٍ عظيم.

وهُم عندما قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ

---

(1) الزخرف: ٣٠، ٣١.

حِفْظٌ

ومؤانسة

مرتبةٌ للرسول ﷺ لم يبلغها ـ قط ـ أيُّ إنسان.

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.(1)

أيُّ إعزازٍ، وأيُّ أُنْسٍ، وأيُّ رعايةٍ، وأيُّ حِفْظٍ، بلْ وأيُّ مكانةٍ، وأيُّ حُبٍّ أعظم من ذلك ؟!

قال الله له ذلك وهو يتحدثُ عن عِناد الكُفّار ومكابرتهم..

ويتَّجه بالخطاب إلى رسوله ﷺ:

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾.(2)

هكذا يُعطي اللهُ نبيَّه زادَ التحمُّل والصبر، بل سبيلَ الفَوْزِ والنصر.

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

تسبيحٌ وتحميدٌ آناءَ الليل وأطراف النهار، وصلةٌ دائمةٌ بمَن لا يُعجزه

---

(1) الطور: ٤٨، ٤٩.

(2) الطور: ٤٥ـ ٤٨.

شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ ﴾.[1]

بدأ هنا بالأمر بالتزود من الزَّاد الذي يُعينُ على التحمُّلِ والصَّبر، ويُطلَبُ به من الله الفوزُ والنصرُ، « وما عند الله لا يُطْلَبُ إلا بطاعته ».

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾[2]

قال الله له ذلك وهو يُناديه نداءَ إيقاظٍ ومُلاطفة، يتناسب مع الحال الذي كان ﷺ عليه.

---

(1) المزمل: ١ـ ١١.

(2) المزمل: ٢ـ ٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ ﴾[1] أي: النائم، كما قال ابنُ عباس. أو المُزَّمِّلُ في ثيابه، كما قال قتادةُ.

﴿ قُمِ ﴾ أَمْرٌ من الله، لا يعني إيقاظه ﷺ من نومٍ أو فِراشٍ فحسب، بل يعني ما هو أعظمُ وأكبرُ من ذلك. يعني الإعداد لمهمة كبرى بالوسائل المناسبة لها.

قيام الليل. قيامه للصلاة وترتيل القرآن.

ذاكَ هو الإعداد للقيام بالحقِّ الذي نَزَل به وأُنْزِل القرآن.

وهنا نستطيع أن نرى الرَّسُول ﷺ في القرآن، وأن نَرَىَ القرآنَ فيه.

نرى الرَّسُول وهو قائمٌ بما أُمِرَ به. نَرَاهُ قرآنياً يُحقِّقُ ـ بالقرآن ـ ذاته ورسالته.

ونرى القرآن مُسَطَّراً في قلبه، رَطْباً بلسانه، خُلُقاً في سَعيه وعمله.

روى مسلم في صحيحه، عن سَعْد بْن هِشَام ـ رضي الله عنه ـ أنه أتى ابنَ عباس ـ رضي الله عنهما ـ فسأله عن الْوِتْر:

فَقَالَ: أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ بِوِتْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟

قَالَ: مَنْ ؟

قَالَ: عَائِشَةُ. فَأْتِهَا فَاسْأَلْهَا.

قال سَعْدٌ: فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟

---

(1) المزمل: ١.

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ.

قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ وَلا أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ.

ثُمَّ بَدَا لِي، فَقُلْتُ: أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلاً، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ.

قَالَ: قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ وِتْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَتْ: كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ، فَيَبْعَثُهُ اللَّهُ مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَتَسَوَّكُ وَيَتَوَضَّأُ، وَيُصَلِّي تِسْعَ رَكَعَاتٍ، لا يَجْلِسُ فِيهَا إِلاَّ فِي الثَّامِنَةِ، فَيَذْكُرُ اللَّهَ وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّ التَّاسِعَةَ، ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللَّهَ وَيَحْمَدُهُ وَيَدْعُوهُ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَتِلْكَ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ. فَلَمَّا سَنَّ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، وَصَنَعَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ مِثْلَ صَنِيعِهِ الأَوَّلِ. فَتِلْكَ تِسْعٌ يَا بُنَيَّ.

وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا غَلَبَهُ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً. وَلا

أَعْلَمُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، وَلا صَلَّى لَيْلَةً إِلَى الصُّبْحِ، وَلا صَامَ شَهْرًا كَامِلاً غَيْرَ رَمَضَانَ ».[1]

ذاكَ هو الرَّسُول ﷺ بالقرآن قائماً به كما أُمِر، مُرَتلاً وتالياً، يُحيي به ليلَهُ، ويذكر ربَّه والناسُ نيام.

ويَا لَهُ من سكونٍ ونورٍ أن يُتلَى القرآنُ بالليل. وفي الليل حضورٌ وشهودٌ، سكونٌ للنفس، ونُورٌ للقلب، وزادٌ للمؤمن في تحمُّل أعباء الحياة، أي زاد.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾[2]

للذِّكْرِ فيه حلاوة، وللصلاة راحةٌ وخشوع، وللمناجاة أُنْسٌ ونُور، قد لا يجدها الإنسان في صلاة النهار.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾[3] للنهار مشاغلهُ وقضاياه، وفي الليل سكونٌ وأُنس، وحضورُ قلب ومناجاة.

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ ﴾[4]

ذِكْرٌ خالصٌ منقطع عن كُلِّ ما عدا الله.

وهذا ما كان من رسول الله ﷺ.

---

(1) مسلم: كتاب صلاة المسافرين.

(2) المزمل: ٦.

(3) المزمل: ٧.

(4) المزمل: ٨.

أَمَا وقد أخذ الرَّسُول ﷺ زادَه من طاعةٍ وذكرٍ وعبادة، فليتوكل على الله وحده، وقد أخذ بأسباب التوكل عليه.

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾.[1]

ومَن تدبر التناسبَ بين هذه الآية وما جاء بعدها من قوله:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ ﴾.[2]

علم أن الصبر الذي أُمِرَ الرَّسُول به ـ في مواجهة المكذبين المتطاولين ـ هو صبرُ الإعذار والإنذار، بل صبرُ الرحمة بأولئك؛ علَّهم يتوبون ويرجعون.

ولذلك قال: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ ﴾[3]

ولا شكَّ أن الهَجْرَ الجميل ـ مع تطاول المكذبين ـ يحتاجُ إلى الصبر الجميل، الذي لا يكون إلا بالله ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

وهذا ما كان من رسول الله، وما رأينا نتائجه فيمن تحوَّل بعد عداوة إلى وَلِيٍّ حميم.

اصْبِرْ، وخَلِّي بيني وبين مَن يكذبونك؛ فأنا كفيلٌ بهم.

دَعْهُم يُكَذِّبُونكَ، واصبرْ على ما يقولون، واهجرهم هجراً جميلاً.

---

(1) المزمل: ٩.

(2) المزمل: ١٠، ١١.

(3) المزمل: ١٠.

الهَجْرُ الجميل يحتاج إلى صَبْرٍ جميل، مطمئنٍ واثقٍ، موصولٍ بالله، لا يُصاحبه قَلَقٌ ولا سخط. وعندئذٍ يكون الهَجْرُ الجميل ـ لِمَن أساء ـ دَفْعاً بالتي هي أحسن.

ومَن كان صبرُه لله وبالله، عَرَفَ سُنَنَ الله في خَلْقِه.

وكان صبرُه صَبْرَ الواثق المطمئن أنَّ لله وحده ـ لا لأحدٍ سواه ـ عاقبة الأمور.

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾.

هكذا نرى القرآنَ حياةً في صميم حياة الرَّسُول، في يقظةٍ أو نوم، في سفر أو في حَضَر، في ليلٍ أو نهار.

نراه مُوحىً به إليه، ماشياً أو قاعداً، مُفطِراً أو صائماً، مُحَارِباً أو مسالماً، مُزَّملاً أو مُدَّثراً.

نراه في جميع الأحوال حياة في صميم حياة الرَّسُول ﷺ.

ونرى الرَّسُول ﷺ يمشي بنوره في الناس.. يتلو، ويُعلِّمُ، ويزكّي، ويحكم بين الناس بما أراه الله، ويُبلِّغُ ما أُنْزِل إليه من ربِّه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.[1]

يُنَادَى الرَّسُول وهو على هذه الحالة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ ملاطفةً

(1) المدثر: ١ـ ٧.

وموانسةً، وتَسْرِيةً بعد عناءٍ وإجهاد.

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ وهو يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ قال:

« جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ [1] فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي، هَبَطْتُ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي. وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، قَالَ: فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا. قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣..... ﴾ ». [2]

وقد روى مسلم عن أبي سلمة قال: أخبرني جابرُ بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه:

« فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجُئِثْتُ [3] مِنْهُ فَرَقًا، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ قال أبو سلمة: وَالرجز الأَوْثَانُ ». [4]

---

(1) جبل بمكة.

(2) البخاري: كتاب التفسير.

(3) أي فزعتُ.

(4) مسلم: كتاب الإيمان.

وإذا تدبرنا ما رواه الطبراني، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في سبب النزول، استطعنا أن نعرفَ لماذا أُمِرَ رسُول الله ﷺ بالصبر في قوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.

إذ قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ إن الوليد بن المغيرة صنع لقريشٍ طعاماً، فلما أكلوا منه، قال: ما تقولون في هذا الرجل ؟

قال بعضُهم: ساحر. وقال بعضُهم: ليس بساحر.

وقال بعضُهم: كاهن. وقال بعضُهم: ليس بكاهن.

وقال بعضُهم: شاعر. وقال بعضُهم: ليس بشاعر.

وقال بعضُهم: بل سِحْرٌ يُؤْثَر.

فأجمع رأيهم على أنه « سِحْرٌ يُؤْثَر ».

فبلغ ذلك النبي ﷺ فَحَزِنَ، وقنَّع رأسه، وتدثَّر، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.[1]

وأيًّا ما كان السبب، فإن للآيات دلالتها في مخاطبة الرَّسُول ﷺ وما يُصنع به، وما يكون عليه.

وهي دلالات لا يُتْركُ للعقل ـ منفرداً ـ أن يستنبطها، وإنما هي آيات بيِّنات تُرىَ في واقع يُحسُّ ويُشَاهَد.

والرَّسُول ﷺ ـ وهو محور الأحداث وجوهرها ـ وجبريل أمين السماء

(1) المدثر: ١ ـ ٧.

رَوَّاحٌ غَدَّاءٌ، يتنزل بأمر ربِّه في أيَّةِ لحظة من ليل أو نهار.

والمجمعون على الكذب والمكر، والصد والكيد، لا يحسون بما هو واقعٌ، ولا يُبصرون.

ولو كانت لهم قلوبٌ يعقلون بها لأيقنوا - والقرآنُ يُتْلَى عليهم - أن الرَّسُول ليس مُجَرَّداً عن قوَّةٍ حتى يُتَآمَر عليه.

ولو كانت لهم آذانٌ يسمعون بها، لكان منهم حُسن تدبر وسماع، ولَمَا وقع منهم أن يتواصوا فيما بينهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.[1]

ولو كانت لهم أَعْيُن يُبصرون بها لَرَأوا الرَّسُول - كما يعرفون - صادقاً أميناً، لم يكذب عليهم قط، فكيف يكذب على الله ؟!

ولكنه العقاب على الجحود.

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾.[2]

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.[3]

ويكفي أن تُتْلَى عليهم هذه الآية لو كانوا يشعرون، وأن يعلموا أن الله يعلم ما يُحْزِنُ نَبيَّه.

---

(1) فصلت: ٢٦.

(2) النمل: ١٤.

(3) الأنعام: ٣٣.

وفي عِلمه بذلك تهديدٌ لهم ووعيد، وهم أعرفُ الناس بلغة العرب ودلالتها.

فكيف إذا سمعوا ما يترتب على قولهم في القرآن ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ ﴾.[1]

والرسولُ ﷺ يُؤْمَرُ بالصَّبْرِ، ويقرعهم بما نَزَلَ من وعيدٍ لقائلهم:

﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ ﴾

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ ﴾.[2]

آياتٌ وآياتٌ يصدعُ بها الرَّسُول، ويقرعهم بها، وهم في طغيانهم يعمهون.

آياتٌ لها سُلطانها ودلالتها على قَدْرِ قائلها.

إذ الوعيد من بشرٍ محدود بحُدود ضعفه وأجله، وقد يموتُ قبل أن ينفذ وعيده.

ولكنَّ الوعيد من الحيِّ الذي لا يموت، الوعيد مِمَّنْ له القوة جميعاً، والعِزَّةُ جميعاً.. ترى لكلمة الوعيد منه ـ سبحانه ـ سُلطاناً وبرهاناً.

---

(1) المدثر: ٢٤، ٢٥.

(2) المدثر: ٢٦ـ ٢٩.

فمَن ذا الذي يقول من البشر: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؟ [1]

وانظر لسلطان الآيات وهي تُلْقَى على الرَّسُول، وهم يكيدون له ويتآمرون.

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾. [2]

كلامٌ عزيز، له قُوَّةٌ وسُلطان. لا يمكن لبشرٍ أن ينطق به، وعيداً لعَدُوٍّ، ووَعْداً لنبيٍّ.

وحامل هذا الوحي للرسول ـ وهو مَلَكٌ واحد من ملائكة الله ـ لو أذن له بهلاكهم لدَّمرهم تدميراً.

وهذه الآيات تُتلى عليهم، وتُذكرهم أنَّ شَرَفهم فيما جاءهم من ربهم، ولكن كثيراً من الناس يَوَدون أن يعيشوا في أرضِ الله بلا شرف.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

فمَن أَبَى هذا الذِّكْرَ عَاشَ في دُنياه بلا شرف.

﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فَبِمَ يُجِيبُون ؟ وبِمَ يُجيبُ مَنْ يُعرضون ويَصُدون ؟

---

(1) القمر: ٤٥.

(2) الزخرف: ٤١ـ ٤٤.

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.[1]

كلامٌ له نور وسُلطان.

أرأيت بمَ يُجيبون حين يُسألون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾.[2]

من بداية مقدمات الموت ومجيئه ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾؛ لأنهم رأوا ما هُم إليه صائرون.

فإذا أُلْقُوا في جهنم قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

فيُجابون ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

(1) المؤمنون: ١٠٥ـ ١١١.

(2) المؤمنون : ٩٩.

وترى النتائج لهم ولِمَن سخروا بهم، وكانوا منهم يستهزئون ويضحكون.

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

كلامٌ عزيز، له قوة وسلطان.

وانظر كيف يُوَبَّخُ هؤلاء وَمنْ على شاكلتهم:

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.[1]

هذه الآيات تُتْلَى على مَن كان له قلبٌ، في أيِّ زمان أو مكان، فلا يحتاج بعدها إلى سلطانِ دليل أو برهان.

والذي يلفت النظر أنَّ الرَّسُول ﷺ - وهو يُخاطَبُ بهذه الآيات بينهم في مكة - يُجابههم بالآيات وفيها تهديدٌ لهم ووعيد، وفيها للرسول ﷺ تثبيتٌ وتسديد!

وليس مع الرَّسُول سوى القرآن، يُسفِّهُ أحلامَهم، ويعيبُ آلهتهم، وهم يتوهمون أنهم على البطش قادرون، مع أنهم أمام سلطانِ القرآن - وحده - عاجزون مقهورون.

---

(1) المؤمنون: ١١٢- ١١٦.

وهم يرون أنَّ الرَّسُول والذين معه ـ مع ما يُلاقون ـ صابرون مستمسكون، يزيدون ولا ينقصون.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.[1]

يا الله ! ذَاكَ هو القرآن يُرَى في الرَّسُول، ويُرى الرَّسُول في القرآن.

معجزةٌ باقية، لا ينطفئ لها نورٌ، ولا يُرجَى بعدها للحقِّ حُجَّةٌ أو برهان.

أرأيتَ أنَّ دعوة الرَّسُول أنْ يصبر على أذى المشركين هي دعوةُ من قادرٍ على الأخْذِ الأليم، والبطش الشديد.

وهو مَنْ أَمَرَ الرَّسُول أن يصبر لَهُ ويه.

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ سبحانه في ملكوته وعلاه !

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾.[2]

القرآن يتنزل، والرَّسُول ﷺ يُؤمَرُ أن يصبرَ على سفاهة السفهاء، وجُحُودِ المستهزئين.

ولكنَّ هذا الصبر من رسول الله لم يكن إمساكاً عن الصَّدْعِ بما أُمِرَ به، وتبليغ ما أُنزل إليه، بل كان آيةً ودلالة على الثبات على الحق والاستمساك به، وأنَّ العاقبة له.

والقرآن الكريم يُنذرهم ويُخبرهم أن الله يَعْصِمُ نبيَّه ويحفظه ـ مع

---

(1) الزخرف: ٤٣، ٤٤.

(2) النحل: ١٢٧.

إصرارهم على الكيد له، وجُحود ما جاء به ـ ليلفت أنظارهم للفرار إلى الله وحده، إذْ لا مقدرةَ لهم على تخويفِ رسوله، أو إطفاء نُوره.

ولا شيء سوى القرآن يُتْلَى عليهم ويُنذرهم، ويهدي المؤمنين ويُبشرهم.

لا شيء سوى القرآن يُتْلَى على هؤلاء وأولئك، فيزداد به المؤمنون إيماناً، ويزداد الظالمون خُسراناً.

* * *